فضل السلف على من بعدهم

وأما البحث الثاني وهو: لماذا فُضِّلوا على من بعدهم؟ فأولًا: قد ورد الشرع بتفضيلهم، وردت السنة بأفضليتهم، فذكر الإمام أحمد في رسالته في الصلاة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { أنتم خير من أبنائكم وأبناؤكم خير من أبنائهم وأبناؤهم خير من أبنائهم } يعني: أن الخيرية تكون للأول، ولا شك أن الأولين حازوا قصب السبق وهو الصُّحبة؛ صحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- فكانوا أفضل ممن بعدهم؛ ولهذا اتفقوا على أن الصحابة -رضي الله عنهم- عدول، تُقبل روايتهم، لم ينقم على أحد منهم ضعف ولا كذب ولا رَدُّ في رواية، ولم يُجْرَحْ أحد منهم في الرواية؛ بل قبلت روايتهم كلهم، واتفقوا على أنهم كلهم عدول. فهذا من ميزتهم، وثبت - أيضًا - في الصحيح قول النبي -صلى الله عليه وسلم- { خير الناس قرني – أي القرن الذي بعثت فيهم - ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتي قوم يشهدون ولا يُستشهدون، ويقولون ولا يُؤتمنون، ويَنذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السمن } ؛ يعني: السمنة، فهذا دليل – أيضًا - على أفضليتهم، وعلى أن ترتيبهم في الفضل ترتيبهم في الوجود، فأفضلهم القرن الأول الذي انقضى بسنة مائة، ويليه القرن الثاني الذي انقضى بسنة مائتين، ويليه القرن الثالث الذي انقضى بثلاثمائة. هذا إذا عُبِّرَ عن القرن بأنه مائة سنة. ومنهم من يقول: إن القرن هم الجماعة الذين يتواجدون في زمان واحد وتتقارب أسنانهم ثم يفنون، آخرهم هو آخر القرن وعلى هذا يكون مثل الحديث الذي قبله { أنتم خير من أبنائكم } ؛ يعني: الصحابة خير من أبنائهم أبناء الصحابة { وأبناؤكم خير من أبنائهم } ؛ يعني: أبناء الصحابة خير من أولادهم { وأبناؤهم خير من أبنائهم } وبهذا حازوا قصب السبق. ولا شك أنهم في ذلك الزمان أو في تلك القرون كانوا فيهم الفضل، وفيهم الشرف، وفيهم العقيدة السليمة، فكانوا بذلك أفضل، ولم تظهر فيهم البدع، ولم تظهر المحدثات، وإذا ظهرت بدعة كانت مضطهدة وأهلها أذلة، فكانوا بذلك أفضل من غيرهم، وكانوا مع ذلك قدوة لمن بعدهم؛ ولهذا تتخذ أقوالهم حجة يعني: يحتج بهم؛ سيما علماؤهم وعبادهم الذين تبصروا في دين الله، وعبدوا الله على نور وبرهان، تتخذ أقوالهم دليلا؛ وذلك لأنا نحسن الظن بهم أنهم لا يعملون إلا عن دليل، ولا يقولون إلا عن توقيف، ولا يروون إلا عن تثبت، لا يروون الأحاديث إلا بعدما يُثَبِّثُونَها فتقبل مراسيل الصحابة بالاتفاق، ومراسيل كبار التابعين فيها خلاف؛ ولكن يترجح أنها تقبل إذا دلت القرائن على صحتها، ولو لم تثبت مسندة. وهكذا - أيضًا - أقوالهم التي يحتجون عليها، أو يذهبون إليها، تتخذ دليلا، فيقال: هذا القول قد سبقنا إليه فلان الصحابي، أو التابعي، قد قال به قبلنا من التابعين فلان وفلان وءهم من العلماء الأجلاء الذين لا يقولون إلا عن توقيف.